

خطبة بعنوان: مكارم الأخلاق وأثرها في صلاح الفرد والمجتمع

عناصر الخطبة:

العنصر الأول: أهمية الأخلاق ومكانتها في الإسلام

العنصر الثاني: أثر العبادات في تهذيب أخلاق الفرد والمجتمع.

العنصر الثالث: مكارم الأخلاق في حياتنا المعاصرة بين النظرية والتطبيق

المقدمة:

أما بعد:

العنصر الأول: أهمية الأخلاق ومكانتها في الإسلام

إن لمكارم الأخلاق أهمية كبرى في الإسلام، ولو نظرنا إلى الدين الإسلامي لوجدناه ينقسم إلى ثلاثة أقسام: عقيدة وتمثل في توحيد الله تعالى، وشريعة: وتمثل في العبادات من صلاة وصيام وزكاة وحج وغيرها، وأخلاق: وتمثل في الأخلاق الفاضلة في التعامل مع الآخرين. وكل قسم من هذه الأقسام الثلاثة يمثل ثلث الإسلام، فالعقيدة تمثل ثلث الإسلام، لذلك كانت سورة الإخلاص تعدل ثلث القرآن لاشتمالها على الجانب العقدي، فعن أبي سعيد الخدري: "أَنَّ رَجُلًا سَمِعَ رَجُلًا يَقْرَأُ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ يُرَدِّدُهَا ، فَلَمَّا أَصْبَحَ جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ وَكَانَ الرَّجُلُ يَتَقَالَّمُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهَا لَتَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ " (متفق عليه) ، وكذلك العبادات تعدل ثلث الإسلام، والأخلاق - التي يظن البعض أن لا علاقة لها بالدين - تعدل ثلث الإسلام، بل الإسلام كله كما سيأتي مفصلاً.

بل إن النبي صلى الله عليه وسلم أخبرنا أن الهدف من بعثته هو غرس مكارم الأخلاق في أفراد المجتمع حيث قال: " إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ " [السلسلة الصحيحة للألباني]. قال المناوي: "أي أرسلت لأجل أن أكمل الأخلاق بعد ما كانت ناقصة، وأجمعها بعد التفرقة." وقد وقف العلماء عند هذا الحديث قائلين: لماذا حصر النبي بعثته في مكارم الأخلاق مع أنه بعث بالتوحيد والعبادات وهي أرفع منزلة وأهم من الأخلاق!!

والجواب: أن التوحيد والعبادات شرعت من أجل ترسيخ مكارم الأخلاق بين أفراد المجتمع، فالغاية والحكمة الجليلة من تشريع العبادات هي غرس الأخلاق الفاضلة وتهذيب النفوس؛ كما هو معلوم في الصلاة والزكاة والصوم والحج وغيرها كما يأتي مفصلاً في العنصر الثاني. ولأهمية الأخلاق أصبحت شعاراً للدين (الدين المعاملة) فلم يكن الدين صلاة ولا زكاة ولا صوم فحسب.

قال الفيروز آبادي -رحمه الله تعالى-: "اعلم أن الدين كله خلق، فمن زاد عليك في الخلق؛ زاد عليك في الدين". لذلك عد حسن الخلق من كمال الإيمان فعن أبي هريرة قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا؛ وَخَيْرًاكُمْ خَيْرًاكُمْ لِنِسَائِهِمْ خُلُقًا." [صحيح سنن الترمذي للألباني]. قال المباركفوري: " أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً ": لأن كمال الإيمان يوجب حسن الخلق والإحسان إلى كافة الإنسان، " وخياركم خياركم لنسائهم ": لأنهن محل الرحمة لضعفهن.

ولأهمية الأخلاق كان حسن الخلق طريقاً إلى الجنة كما أن سوء الخلق طريق إلى النار، وفي السنة شواهد كثيرة على ذلك: فعن أبي أمامة قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " أَنَا زَعِيمٌ بَيْنِي فِي رَيْضِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَإِنْ كَانَ حُجًّا، وَبَيْنِي فِي وَسْطِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْكَذِبَ وَإِنْ كَانَ مَارِحًا، وَبَيْنِي فِي أَعْلَى الْجَنَّةِ لِمَنْ حَسَنَ خُلُقُهُ " [السلسلة الصحيحة - الألباني]

وعن جابر أن رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحْسَنُكُمْ أَخْلَاقًا، وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ الشَّرَّارُونَ وَالْمُتَشَدُّقُونَ وَالْمُتَفَيِّهُونَ، قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ: قَدْ عَلِمْنَا الشَّرَّارُونَ وَالْمُتَشَدُّقُونَ فَمَا الْمُتَفَيِّهُونَ؟ قَالَ: [السلسلة الصحيحة - الألباني]

وعن أبي الدرداء -رضي الله عنه- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم " مَا مِنْ شَيْءٍ فِي الْمِيزَانِ أَنْقَلُ مِنْ حُسْنِ الْخُلُقِ " (أبو داود)

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : سئِلَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ أَكْثَرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ الْجَنَّةَ؟ فَقَالَ: "تَقْوَى اللَّهِ وَحُسْنُ الْخُلُقِ" وَسئِلَ عَنْ أَكْثَرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ النَّارَ؟ فَقَالَ: "الْقَمَمُ وَالْفَرْجُ" [السلسلة الصحيحة - الألباني]، كما أن خلقاً واحداً من بين سائر الأخلاق قد يكون سبباً في دخولك الجنة، فعن رُبَيْعِ بْنِ حِرَاشٍ قَالَ: اجْتَمَعَ حُدَيْفَةُ وَأَبُو مَسْعُودٍ فَقَالَ حُدَيْفَةُ: رَجُلٌ لَقِيَ رَبَّهُ فَقَالَ مَا عَمِلْتُ؟ قَالَ: مَا عَمِلْتُ مِنَ الْخَيْرِ إِلَّا أَيْ كُنْتُ رَجُلًا ذَا مَالٍ فَكُنْتُ أُطَالِبُ بِهِ النَّاسَ فَكُنْتُ أَقْبَلُ الْمَيْسُورَ وَأَجَاوِزُ عَنِ الْمَعْسُورِ، فَقَالَ: تَجَاوَزُوا عَنِ عَبْدِي" (مسلم) فهذا الرجل لم يعمل خيراً قط سوى خلقٍ واحدٍ فكان طريقاً له إلى الجنة فما بالك لو تحليت بمكارم الأخلاق كلها؟!!

لذلك اهتم الصحابة بحسن الخلق وطلبه من الله، فعن أُمِّ الدَّرْدَاءِ قَالَتْ: بَاتَ أَبُو الدَّرْدَاءِ اللَّيْلَةَ يُصَلِّي فَحَجَلَ يَبْكِي وَيَتُؤَلُّ: "اللَّهُمَّ أَحْسَنْتَ خَلْقِي فَأَحْسِنْ خُلُقِي، حَتَّى أَصْبَحَ، فَقُلْتُ: يَا أَبَا الدَّرْدَاءِ، مَا كَانَ دُعَاؤُكَ مُنْذُ اللَّيْلَةِ إِلَّا فِي حُسْنِ الْخُلُقِ، قَالَ: يَا أُمَّ الدَّرْدَاءِ، إِنَّ الْعَبْدَ الْمُسْلِمَ يَحْسُنُ خُلُقَهُ حَتَّى يُدْخِلَهُ حُسْنُ خُلُقِهِ الْجَنَّةَ، وَيَسُوءُ خُلُقَهُ حَتَّى يُدْخِلَهُ سُوءُ خُلُقِهِ النَّارَ" (شعب الإيمان للبيهقي)

ولا يقتصر حسن الخلق مع الناس وحسب، بل تعدى ذلك إلى عالم الحيوانات والكلاب والقطط؛ فإحسانك إلى البهائم يكون سبباً في غفران ذنوبك ودخولك الجنة: فعن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "بَيْنَا رَجُلٌ يَمْشِي فَاشْتَدَّ عَلَيْهِ الْعَطَشُ فَنَزَلَ بِئْرًا فَشَرِبَ مِنْهَا ثُمَّ خَرَجَ؛ فَإِذَا هُوَ بِكَلْبٍ يَلْهَثُ يَأْكُلُ التُّرَى مِنَ الْعَطَشِ. فَقَالَ: لَقَدْ بَلَغَ هَذَا مِثْلُ الَّذِي بَلَغَ بِي، فَمَلَأَ خُفَّهُ ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِيَمِينِهِ ثُمَّ رَقِيَ فَسَقَى الْكَلْبَ فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ فَعَفَرَ لَهُ. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَإِنَّ لَنَا فِي الْبَهَائِمِ أَجْرًا؟! قَالَ: فِي كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ" (البخاري)

فبحسن خلق هذا الرجل وعطفه ورحمته بالكلب غفر الله له ودخل الجنة. وعلى النقيض من ذلك، انظر إلى عاقبة سوء الخلق: فعن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "عُدْبَتُ امْرَأَةٍ فِي هِرَّةٍ سَحَنَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ فَدَخَلْتُ فِيهَا النَّارَ، لَا هِيَ أَطْعَمَتْهَا وَلَا سَقَتْهَا إِذْ حَبَسَتْهَا وَلَا هِيَ تَرَكَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ" (متفق عليه).

فإذا كان حسن الخلق مع الحيوانات والكلاب والقطط والدواب سبباً إلى الجنة؛ وسوء الخلق مع هذه الفئات سبباً إلى النار؛ وهذا في عالم الكلاب والحيوانات؛ فما بالكم بمن حسن خلقه مع بني البشر؟! وما أجمل قول ابن حبان: "الواجب على العاقل أن يتجنب إلى الناس بلزوم حسن الخلق، وترك سوء الخلق، لأن الخلق الحسن يذيب الخطايا كما تذيب الشمس الحديد، وإن الخلق السيء يفسد العمل كما يفسد الخل العسل، وقد تكون في الرجل أخلاق كثيرة صالحة كلها، وخلق سيء، فيفسد الخلق السيء الأخلاق الصالحة كلها" أيها المسلمون: إن حسن الخلق يرفع العبد منزلة عند الله حتى يبلغ درجة الصائم القائم، فعن أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِنَّ الْعَبْدَ لَيَبْلُغُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ" [السلسلة الصحيحة - الألباني] وكما أن حسن الخلق يوجب الجنة فكذلك يجرم صاحبه على النار. فعن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمَنْ يَحْرُمُ عَلَى النَّارِ أَوْ بِمَنْ تَحْرُمُ عَلَيْهِ النَّارُ؟! عَلَى كُلِّ قَرِيبٍ هَيِّنٍ سَهْلٍ" [السلسلة الصحيحة - الألباني] وهكذا تظهر أهمية الأخلاق ومكانتها في الرسالة المحمدية حتى أصبحت شعاراً للدين تمثله كله.

العنصر الثاني: أثر العبادات في تهذيب أخلاق الفرد والمجتمع.

عباد الله: إن الإسلام لم يشرع العبادات بكافة صورها طقوساً ولا شعائر مجردة من المعنى والمضمون، بل إن كل عبادة تحمل في جوهرها قيمة أخلاقية مطلوب أن تنعكس على سلوك المسلم المؤدي لهذه العبادة، وأن تتضح جلياً في شخصيته وتعاملاته مع الغير، وأيضاً فيما يرسمه لذاته من إطار يحرص على الالتزام به ولا يجيد عنه.

ولو طوفنا حول جميع العبادات لوجدنا الهدف منها هو تهذيب الأخلاق وتركيبتها، فالزكاة المفروضة - مثلاً - ليست ضريبة تؤخذ من الجيوب، بل هي أولاً غرس لمشاعر الحنان والرأفة، وتوطيد لعلاقات التعارف والألفة بين شتى الطبقات، وقد نص القرآن على الغاية من إخراج الزكاة بقوله: " خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ" [التوبة/ ١٠٣]، فالزكاة تنظف النفس من أدران الشح والبخل والتقتير؛ وتنشر بين الناس التعاون والتكافل والمحبة .

وفي الصلاة، تأتي الحكمة العليا منها في قوله تعالى: "وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ" (العنكبوت: ٤٥) فأنت مأمور في أداء الصلاة في جماعة، لكي تحتك بالناس وتتفاعل معهم وتربطك بهم صلوات وتواد وتراحم، فضلاً عن أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، فمن لم تنهه صلواته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له.

وفي الصيام نعلم أن رمضان شهر مكارم الأخلاق ومدرستها، فهو شهر الصبر، وشهر الصدق، وشهر البر، وشهر الكرم، وشهر الصلوة، وشهر الرحمة، وشهر الصلح، وشهر الحلم، وشهر المراقبة، وشهر التقوى، وكل هذه أخلاق يغرسه الصوم في نفوس الصائمين وذلك من خلال قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» (البقرة: ١٨٣)، بكل ما تحمله كلمة التقوى من دلالات ومعان إيمانية وأخلاقية، ويربي الرسول صلى الله عليه وسلم الصائمين على أرفع القيم الخلقية وأنبهها حيث يقول: "الصِّيَامُ جُنَّةٌ فَإِذَا كَانَ يَوْمُ صَوْمِ أَحَدِكُمْ فَلَا يَزُفُثُ وَلَا يَصْحَبُ، فَإِنْ سَابَّهُ أَحَدٌ أَوْ قَاتَلَهُ فَلْيُكَلِّمْهُ: إِيَّ امْرُؤٍ صَائِمٍ" (البخاري ومسلم)، فالصوم جنة أي وقاية من جميع الأمراض الخلقية، ويفسر ما بعده "فَإِذَا كَانَ يَوْمُ صَوْمِ أَحَدِكُمْ فَلَا يَزُفُثُ وَلَا يَصْحَبُ" فإن اعتدى عليك الآخرون بسب أو جهل أو أذى فقل: "إِيَّ امْرُؤٍ صَائِمٍ" والمعني: إني في غاية التقوى والتحلي بأخلاق الصيام، ولا ينبغي لي أن أفسد صومي بالرد عليك بهذه الأقوال البذيئة، فإذا حاول إنسان استفزازك بما يحملك على رد إساءته، ومقابلة سبه بسب، فعليك أن تدرك أن الصوم يحركك عن ذلك لأنه جنة ووقاية من سيء الأخلاق!!

وفي الحج يغرس القرآن أسمى المعاني الأخلاقية في نفوس الحجاج والمعتزمين من خلال قوله تعالى: "الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ" [البقرة/١٩٧]، فقد يظن الإنسان أن السفر إلى البقاع المقدسة رحلة مجردة عن المعاني الخلقية، بل أنت مأمور بضبط الأخلاق أثناء الزحام، كما يجب عليك اجتناب الرفث والفسوق والجدال والخصام في الحج، فضلاً عن غرس قيم الصبر وتحمل المشاق والمساواة بين الغني والفقير والتجرد من الأمراض الخلقية.

عباد الله: هذا العرض الجمل لبعض العبادات التي اشتهر بها الإسلام، وعرفت على أنها أركانه الأصيل، نستبين منه متانة الأواصر التي تربط الدين بالخلق، إنها عبادات متباينة في جوهرها ومظهرها، ولكنها تلتقي عند الغاية التي رسمها الرسول صلى الله عليه وسلم في قوله: "إنما بُعثت لأتمم صالح الأخلاق"، لأنها كلها شرعت من أجل الأخلاق كما دللنا على ذلك بشواهد صحيحة من القرآن والسنة.

أحبي في الله: هذه رسالة أرسلها لي قبلكم؛ أن الذي يكثر من الصلاة والصيام والصدقة والعبادات؛ ومع ذلك يسيء إلى الآخرين من جيرانه وأصدقائه وأقاربه وزملائه في العمل..... إلخ والله - أقولها غير حانث - لن تنفعه عباداته كلها إذا ساءت أخلاقه؛ وهذا ليس من كلامي؛ بل من كلام سيد البشر صاحب الذكرى العطرة صلى الله عليه وسلم!! فعن أبي هريرة قال قال رجل: "يا رسول الله إن فلانة يُذكَرُ مِنْ كَثْرَةِ صَلَاتِهَا وَصِيَامِهَا وَصَدَقَتِهَا غَيْرَ أَنَّهَا تُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا. قَالَ: هِيَ فِي النَّارِ. قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ فَإِنَّ فَلَانَةَ يُذكَرُ مِنْ قِلَّةِ صِيَامِهَا وَصَدَقَتِهَا وَصَلَاتِهَا وَإِنَّهَا تَصَدَّقُ بِالْأَثْوَارِ مِنَ الْأَقِطِ وَلَا تُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا. قَالَ: هِيَ فِي الْجَنَّةِ" [صحيح الترغيب والترهيب - الألباني] فانظر كيف لم تُجدِ كثرة العبادة مع انعدام مكارم الأخلاق!! بل انظر ماذا فعل حسن الخلق رغم قلة العبادة!!!

إن الإنسان يأتي يوم القيامة معه حسنات وعبادات كثيرة؛ يحملها وهو محروم منها؛ بسبب فساد أخلاقه؛ فعن أبي هريرة، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - قَالَ: "أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟ قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ، فَقَالَ: إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَدَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا وَسَفَكَ دَمَ هَذَا وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فُيِّتَ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ، أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ" (مسلم)

أيها المسلمون: إن العبادة هي علاقة بينك وبين ربك، أما السلوك فهو علاقة بينك وبين الناس، ولا بد أن تنعكس العلاقة بينك وبين ربك على العلاقة بينك وبين أفراد المجتمع، فتحسنها وتهذبها!!

العصر الثالث: مكارم الأخلاق في حياتنا المعاصرة بين النظرية والتطبيق

عباد الله: إن الأزمة في حياتنا المعاصرة أزمة أخلاق؛ لأن قوام الأمم بالأخلاق وضياعها بفقدانها لأخلاقها، قال الشاعر أحمد شوقي:

إِنَّمَا الْأُمَمُ الْأَخْلَاقُ مَا بَقِيَتْ فَإِنَّ هُمُو ذَهَبَتْ أَخْلَاقُهُمْ ذَهَبُوا

وقال: وَإِذَا أُصِيبَ الْقَوْمُ فِي أَخْلَاقِهِمْ فَأَقْسَمَ عَلَيْهِمْ مَأْتَمًا وَعَوِيلاً.

وقال: صَلَاحُ أَمْرِكَ لِلْأَخْلَاقِ مَرْجِعُهُ فَقَوْمِ النَّفْسِ بِالْأَخْلَاقِ تَسْتَقِمُ

ولو نظرنا إلى حياتنا المعاصرة لوجدنا انفصالا بين ما نقرأه وتعلمه ونتعبد به ؛ وبين ما نطبقه على أرض الواقع؛ وسأحكي لكم قصة تدل على مدى الانفصام والانفصال بين النظرية والتطبيق: شاب يعمل في دولة أجنبية، فأعجبته فتاة أجنبية فتقدم لخطبتها وكانت غير مسلمة، فرفض أبوه لأنها غير مسلمة، فأخذ الشاب مجموعة من الكتب تظهر سماحة الإسلام وروحه وسلوكياته وأخلاقه ثم أعطاها لها، طمعا في إسلامها وزواجها، فطلبت منه مهلة شهرين تقرأ الكتب وتتعرف على الإسلام وروحه وأخلاقه وسماحته، وبعد انتهاء المدة تقدم لها فرفضته قائلة: لست أنت الشخص الذي يحمل تلك الصفات التي في الكتب، ولكي أريد شخصا بهذه الصفات!!

فكلنا نقرأ في الأخلاق!! وكلنا نحفظ آيات وأحاديث في الأخلاق!! وكلنا نسمع صورا مشرقة من أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم وسلفنا الصالح رضي الله عنهم أجمعين!! ولكن هل طبقنا ذلك عمليا!!

أحبتني في الله: ألا فلنتأسى بالنبي وسلفنا الصالح في تطبيقهم العملي الواقعي لمكارم الأخلاق؛ وسأضرب لك بعض الأمثلة: عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ أَنَّهُ قَالَ: "يُنَمَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَالِسًا وَمَعَهُ أَصْحَابُهُ وَقَعَ رَجُلٌ بِأَيْ بَكَرٍ فَأَذَاهُ فَصَمَتَ عَنْهُ أَبُو بَكْرٍ ؛ ثُمَّ أَذَاهُ الثَّانِيَةَ فَصَمَتَ عَنْهُ أَبُو بَكْرٍ ؛ ثُمَّ أَذَاهُ الثَّلَاثَةَ فَانْتَصَرَ مِنْهُ أَبُو بَكْرٍ . فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ حِينَ انْتَصَرَ أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَوْجَدْتُ عَلَيَّ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: نَزَلَ مَلَكٌ مِنَ السَّمَاءِ يُكذِّبُهُ بِمَا قَالَ لَكَ فَلَمَّا انْتَصَرْتَ وَقَعَ الشَّيْطَانُ فَلَمْ أَكُنْ لِأَجْلِسَ إِذْ وَقَعَ الشَّيْطَانُ: (الصحيحة للألباني)، فالله وكل ملكا يرد عنك إذا سبك أحد ؛ فإذا رددت انصرف الملك وحضر الشيطان يمارس مهنته!!

لذلك قال الشافعي: يخاطبني السفه بكل قبح..... فأكره أن أكون له مجيبا

يزيد سفاهة فأزيد حلماً..... كعود زاده الإحراق طيبا

وقال: إذا نطق السفه فلا تجبه..... فخير من إجابته السكوت

إن كلمته فرجت عنه..... وإن تركته كمدأ يموت

عباد الله: إن من مكارم الأخلاق السكوت وعدم الرد على الجاهل؛ لأنك لو رددت على من سبك أو شتمك وخاصمك فقد فتحت بابا من أبواب الشر؛ وما أجمل قول الشافعي رحمه الله حينما عاتبه الناس في سكوته عن الجاهل:

قالوا سَكَتَ وَقَدْ حُوصِمْتَ قُلْتُ هُمُ..... إِنَّ الْجَوَابَ لِيَابِ الشَّرِّ مِفْتَاحُ

وَالصَّمْتُ عَن جَاهِلٍ أَوْ أَحْمَقٍ شَرَفٌ..... وَفِيهِ أَيْضًا لِيَصَوْنِ الْعَرِضِ إِصْلَاحُ

أَمَا تَرَى الْأَسَدَ تُخْشَى وَهِيَ صَامِتَةٌ..... وَالْكَلبُ يُخْشَى لِعَمْرِي وَهُوَ نَبَّاحُ

فالأسد يهابه الجميع وهو صامت ؛ والكلب نباح على الدوام ولا يخافه أحد؛ فكن كالأسد ولا تكن كالكلب!!!

فلو اضطرت للكلام فلا تقل إلا خيرا، كما مر عيسى عليه السلام بقوم من بني إسرائيل فقالوا له شراً، فقال خيراً، فقليل له: إنهم يقولون لك شراً وتقول خيراً؟! فقال لهم عليه السلام: كل واحد ينفق مما عنده!!

ولذلك ضرب بالأحنف بن قيس المثل في الحلم والصفح، فقليل له: كيف وصلت إلى هذه المنزلة؟ فقال: ما آذاني أحد إلا أخذت في أمره بإحدى ثلاث: إن كان فوقني عرفت له فضله، وإن كان مثلي تفضلت عليه، وإن كان دوني أكرمت نفسي عنه. وفي هذا المعنى يقول الشاعر محمود الوراق:

سَأَلَرِمْ نَفْسِي الصَّفْحَ عَن كُلِّ مُذْنِبٍ وَإِن كَثُرَتْ مِنْهُ عَلَيَّ الْجَرَائِمُ
 وَمَا النَّاسُ إِلَّا وَاحِدٌ مِنْ ثَلَاثَةٍ..... شَرِيفٌ وَمَشْرُوفٌ وَمِنْلِي مُقَاوِمٌ
 فَأَمَّا الَّذِي فَوْقِي فَأَعْرِفُ فَضْلَهُ..... وَأَلْزَمُ فِيهِ الْحَقَّ وَالْحَقُّ لَازِمٌ
 وَأَمَّا الَّذِي دُونِي فَإِن قَالَ صُنْتُ..... عَن مَقَالَتِهِ نَفْسِي وَإِن لَمْ لَازِمٌ
 وَأَمَّا الَّذِي مِثْلِي فَإِن زَلَّ أَوْ هَفَا..... تَفَصَّلْتُ إِنَّ الْفَضْلَ لِلْحُرِّ حَاكِمٌ
 فما أعظمها من مثل وما أجملها من أخلاق، لو طبَّقنا ذلك عملياً.

وهذا ما أمر الله به نبيه صلى الله عليه وسلم: { خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ }؛ لما نزلت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما هذا يا جبريل؟" قال: إن الله أمرك أن تعفو عمن ظلمك، وتعطي من حرمك، وتصل من قطعك." (تفسير ابن كثير)

أيها المسلمون: إن العامل الأكبر في انتشار الإسلام في عصر النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة والسلف الصالح إنما هو مكارم الأخلاق الكريمة التي لمسها المدعون في هذا الجيل الفذ من المسلمين، سواء كانت هذه الأخلاق في مجال التجارة من البيع والشراء، مثل الصدق والأمانة؛ أو في مجال الحروب والمعارك، وفي عرض الإسلام عليهم وتخييرهم بين الإسلام أو الجزية أو المعركة، أو في حسن معاملة الأسرى، أو عدم قتل النساء والأطفال والشيوخ والرهبان، هذه الأخلاق وغيرها دفعت هؤلاء الناس يفكرون في هذا الدين الجديد الذي يحمله هؤلاء، وغالبًا كان ينتهي بهم المطاف إلى الدخول في هذا الدين وحب تعاليمه، ومؤاخاة المسلمين الفاتحين في الدين والعقيدة!!

هذه الأخلاق أثارت إعجاب الباحث الفرنسي كليمان هوارت حيث يقول: "لم يكن محمدٌ نبياً عادياً، بل استحق بجدارة أن يكون خاتم الأنبياء، لأنه قابل كل الصعاب التي قابلت كل الأنبياء الذين سبقوه مضاعفة من بني قومه... نبي ليس عادياً من يقسم أنه "لو سرقت فاطمة ابنته لقطع يدها"! ولو أن المسلمين اتخذوا رسولهم قدوة في مكارم الأخلاق لأصبح العالم مسلماً"

هذه هي أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم؛ فهو المثل الأعلى في الأخلاق؛ شهد له ربه في علاه: { وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ } (القلم: ٤)؛ ولما سئلت أمنا عائشة رضي الله عنها عن أخلاقه قالت: "كان خلقه القرآن" (مسلم)؛ فالإنسان لا يكسب قلوب الناس واستمالتهم بالغلبة أو القوة أو المنصب والجاه؛ وإنما بمكارم الأخلاق؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم؛ ولكن يسعهم منكم بسطُ الوجه وحسنُ الخلق." [صحيح الترغيب والترهيب - الألباني]

أحبي في الله: قد يقول قائل: كيف أكتسب تلك الأخلاق الحسنة وأطبقها؟! أقول: هناك وسائل لتحصيل حسن الخلق تتمثل فيما يلي:

١ - الدعاء بحسن الخلق، كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو بذلك: "وأهديني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت؛ وأصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت" (الترمذي)، كذلك كان صلى الله عليه وسلم يستعيز من سوء الخلق فكان يقول: "اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الشَّقَاقِ وَالنَّفَاقِ وَسُوءِ الْأَخْلَاقِ" . (أبو داود والنسائي)

- ٢ - التفكير في ثواب حسن الخلق وما أعدده الله من النعيم.
 - ٤ - الاستماع والانتفاع بكلام الأعداء والخصوم.
 - ٦ - النظر في سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم والتأمل في مواقفه الرائعة.
 - ٨ - التأمل والتعرف على ما تحمله النفس من أخلاق سيئة وعادات قبيحة.
 - ٩ - تمرين النفس على فعل الأخلاق الحسنة بالتطبيق العملي.
 - ١٠ - مجاهدة النفس واستفراغ الوسع على ترك الأخلاق السيئة.
- اللهم اهدنا لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عنا سيئها لا يصرف عنا سيئها إلا أنت.

كتبه: خادم الدعوة الإسلامية

وأقم الصلاة،،،،

الدعاء،،،،

د / خالد بدير بدوي